الدرس البديعي في مراجعات العرب المحدثين
من التحسين إلى التماسك النصيّ

الدكتور: عثماني عمّار

المركز الجامعي أحمد زبانة ـ غليزان ـ الجزائر

الملخص: يروم المقال معالجة التصورات التي طرحها العرب المحدثون في سبيل تجديد علم البديع؛ هذا العلم الذي لم يأخذ حقّه من الاهتمام مقارنة بعلمي المعاني والبيان. مما استدعى متابعة الآراء والأفكار الجديدة التي أفرزها التأثر العربي بالمعطى المعرفي اللساني، حيث حاولنا في المقال أن نركز على « الوظيفة الدلالية» المسندة لهذا العلم، بداء من كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، مرورا بالكتابات التي أخذت بآرائه (مرحلة التلخيص والحواشي)، إلى تلك الدراسات الحديثة التي نادى أصحابها بتجديد علم البديع، وضرورة البحث عن وظيفة دلالية له، بدلا من وظيفة " التحسين". وتحقيقا لهذه الغاية قد توقفنا مطولا عند دراستي محمد عبد المطلب وجميل عبد المجيد لأهميتهما في طرح تصوّر يخرج الفنون البديعية من شكلية التحسين إلى الإسهام في إنتاج النص وتقويته.

الكلمات المفتاحية: البديع- التجديد- التحسين- السبك- الحبك.

Abstract: The article purports to address the perceptions put forward by the modernizing Arabs in order to renew the science of Budaiya (Speech embellishment figures), the latter did not receive its right of attention compared to the significance and statement (figurative expression) sciences. It necessitated the follow-up of new opinions and ideas brought about by the Arab influence by the cognitive-linguistic datum. We have tried via the current article to focus on the "semantic function" assigned to this science, starting with the "Key to Science" book of the Sakaki, through the writings which took his views (the

تاريخ إيداع البحث: 25 مارس 2019.

تاريخ قبول البحث: 13 نوفمبر 2019.

summary and footnotes stage), to those recent studies, whose owners called for the renewal the Budi science, and the need to search for a semantic function for it, rather than the "optimization" function. To this end, we have paused for a long time at studying Muhammad Abdul Muttalib and Jamil Abdul Majeed for their importance in presenting a concept that exudes innovative arts from the formality of improvement to contributing to the production and strengthening of the text .
Key words: Budaiya - innovation - improvement - moulding - knitting

توطئة:

نَظرت البلاغة السكاكية إلى البديع نظرة تدنو قيمة من علمي المعاني والبيان. وأساليب البديع عند السكاكي (626هـ) وجوه: "**يُصار إليها؛، لقصد تحسين الكلام**"[1]، أي تزينه وتجميله. والغريب أنّ هذه الوظيفة أسندها السكاكي لهذه الوجوه في حالة أنّ البلاغة والفصاحة مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين. ومن جهة أخرى فإنّه لم يجعل هذه الفنون البديعية علما، نظير ما حصل في علمي المعاني والبيان.

ولقد كرّر البلاغيون هذا التعريف، حيث لم يتغير هذا الوصف عند بدر الدين ابن مالك (686هـ) الذي يرى أنّ البديع " **وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام**"[2].

ومن ثمّ فإنّ المتأمل في مصنفات المحدثين، من الذين يندرجون في سياق تيسير البلاغة، نقلوا تعريف القزويني (ت739هـ) لعلم البديع، القائل: هو " **علم يعرف به وجوه تحسين الكلام**"[3]، وبقي التعريف معلّقا في الأذهان ومشهورا في الأوساط الأكاديمية والتربوية. ويتعامل معه على أنّه زينة في الكلام.

والتحسين عند هؤلاء البلاغيّين شيء خارجي مضاف، وليس له صفة الديمومة، والانبثاق من المادة نفسها، ولهذا عدوه تحسينا، بمعنى أنّه عرض زائل، لا تتعدى وظيفته تحلية السياق.

وقد جعل مصطلح التحسين الكثيرين يظنون أنّ هذا العلم ليس ضروريا لإنشاء الكلام، وليس أساسيا من وجهة نظر منطقية، بل إنّ هذا المصطلح جعل

المحدثين لا يهتمون به، ويرونه نوعا من التكلف والصنعة التي لا تتفق وطبيعة الإبداع[4].

وقد أضحى هذا المفهوم الذي وضعه البلاغيون قديما لهذا العلم مستقرا بين الباحثين والمتعلمين، ولا يزال إلى اليوم يدرس علم البديع على أنّ فنون زينة تضاف إلى الكلام بغية التحلية والتحسين.

ومن هذا المنطلق ظهرت بعض الدراسات التي ينادي أصحابها بتجديد هذا العلم، وإعادة قراءة التراث البلاغي مرة أخرى؛ لعله يمكننا ذلك من إيجاد مخرج لأزمة علم البديع، بعد أن ظلّ زمنا ينظر إليه نظرة سلبية مقارنة بعلمي البيان والمعاني.

صورة " علم البديع" في تصورات التجديد:

كانت الدعوة مبكرة عند أحمد مطلوب لدراسة الفنّ البديعي وفق رؤية جديدة، وهو القائل: "**وما أحوجنا اليوم إلى أن نعيد النظر في فنون (البديع) في ضوء الدراسات الحديثة، فنأخذ منها ما عثر استعماله في كلام العرب، وما كان له تأثير في أدبنا الحديث، وبذلك نبعث الحياة فيه من جديد، ونعطيه حقه في الدراسات البلاغية، والنقدية**"[5]

ودعا شفيع السيد إلى ضرورة إعادة النظر في الألوان البديعية للوقوف على دورها في إنتاج الدلالة. يقول فيما بيانه: "**بعض الألوان البديعية في علم البديع والتي ما تزال تحظى بالذكر في قاعات الدرس في إطار الوظيفة التقليدية المعروفة لألوان البديع بعامة وهي التحسين والتجميل- أنّ بعض هذه الألوان وسيلة فنية عميقة الأثر خصبة الدلالة، لو اتلف إليها الدارسون المحدثون وأخرجها من ذلك القالب الذي وضعه فيه البلاغيون منذ ابن المعتز**"[6].

وخصّ شفيع السيد هذه الألوان البديعية حديثه عن " المقابلة" التي تجمدت فيها الظاهرة الأسلوبية في حدود المفهوم الذي وضعه الأقدمون، وتأتي دعوة شفيع في تجديد القول في "المقابلة"، انطلاقا من تطور الفنّ الأدبي،

واستحداث أساليب جديدة، تفرض ضرورة تطوير مفهوم المقابلة، وعدم الوقوف به عند الحدود التي وقف عندها البلاغيون القدماء، معيبا على بقاء نفس لنهج في المؤلفات البلاغية الحديثة[7].

وأعاب شفيع السيّد إلى التعدد الحاصل في الظواهر البديعية التي تميزت بالكثرة، في حين أنّ الفرق بينهم لا يكاد يخرج عن الاسمية فقط، يقول في هذا السياق: "**لقد انصرف البلاغيون إلى تعداد الظواهر... وشغلوا أنفسهم بالإكثار منها بالتوليد والتفريع، مع ذكر بعض الفروق الطفيفة التي لا تتأثر لها سوى أن يكون لهذه الظاهرة اسم، وتلك اسم آخر**"[8].

ودعا شفيع السيد القارئ العربي إلى مقارنة بين بعض الفنون البديعية مثل مراعاة النظير، وتشابه الأطراف، الإرصاد أو التسهيم، فضلا عن مراجعة أسماء أنواع الجناس. مما جعله يعزي تقسيم البلاغين القدماء الفنون البديعية إلى القسمة العقلية، التي تميزت بها المدرسة السكاكية، بسبب تأثير المنطق والفلسفة على البلاغة.

ويَعتبر شفيع السيد أنّ الإفراط في تقسيم الفنون البديعية له سلبياته، منتقدا مسيرة البحث البلاغي بهذه الشاكلة، قائلا: "**مضى البحث البلاغي بتكلف إحصاء الظواهر، والاستزادة منها فأي سبيل، دون أدنى اهتمام بما ينبغي أن يكون غاية أساسية لدراستها، وهي تحليل مدى تأثيرها في تشكيل الصورة الفنية في الشعر والنثر، وعوامل شيوع ظاهرة ما عند شاعر معين، أو لدى شعراء عصر بذاته، وعلاقة ذلك بالمناخ الفكري والنفسي للشاعر أو للعصر كله**"[9].

ويرى شفيع السيد أنّ ضحالة العطاء الفني عند شعراء القرون الأخيرة كان له اثر في توجيه البلاغيين إلى المضي في هذا الإفراط في تقسيم الفنون البديعية، قائلا: "**ولا نغالي إذا قلنا إنّ بعض من النماذج الشعرية كتبت لتكون شاهدا على لون بديعي أو آخر**"[10].

وكثيرة هي الدراسات البلاغية التي انطلق الإجراء فيها من محاولة تقديم تصوّر تجديدي لعلم البديع، غير أنّها لم تخرج عن تحديد الفنون البديعية بهدف

تعليمها وتلقينها إلى المتلقي، ولم تحيد النظرة فيها عن تحديد الوجه البديعي في الكلام الأدبي، متناسية وظيفته الدلالية.

وضع بسيوني هدفا لدراسة الفنون البديعية، والذي يقوم على "**تجلية هذه الألوان، والكشف عن دقائقها وإبراز مكانتها البلاغية، وبيان وإيضاح أن الزينة المنبعثة زينة ذاتية يقتضيها المقام، وليست زينة عرضية شكلية بعد رعاية المطابقة للحال ووضوح الدلالة**"(11).

ومن الدراسات التي عالجت هذا الفنّ، دراسة **عبد العزيز عتيق(في البلاغة العربية: علم البديع)**، وهي في حقيقة أمرها مجموعة من المحاضرات، كما ذكر المؤلف، كان يلقيها على طلبة الصف الثاني بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بيروت. وهي تشمل جانبين: يمثلهما قوله " **الجانب الأول من هذه المحاضرات يعالج نشأة البديع وتطوره، والمراحل التي مر بها حتى صار علما قائم بذاته، هذا مع التعريف بكبار رجاله وكتبهم والطرق التي سلكوها في دراسته. أما الجانب الآخر من المحاضرات، فدراسة مفصلة تحليلية لأهم فنون البديع اللفظية والمعنوية، وأثرها في الكلام**". غير أنّه لم يقدّم بديلاً في دراسة الفنّ البديعي، ولم تتجاوز في التفصيلية التي ادّعتها المنهاج العام الذي ساد عند المتأخرين، فكان كتابه بمثابة نقل لآراء رواد البلاغة السكاكية في هذا الفنّ، سواء من خلال التعريف أو الاستشهاد.

وحاول **فايز الداية** دراسة القيمة الفنية للبيان والبديع في كتابه: **(البلاغة العربية: البيان والبديع)**، يقول موضحا عمله: "**إننا نتدارس القيمة الفنية للبيان والبديع من خلال خطوط أساسية عند ابن طباطبا في 'عيار الشعر'، وأبي هلال العسكري في الصناعتين، والقاضي علي عبد العزيز الجرجاني في ' الوساطة بين المتنبي وخصومه'، ولدى صاحب ' الإيضاح' في علوم البلاغة جلال الدين القزويني**"(12)، إلاّ أنّه غيّب دراسة القيمة الفنية للبديع في الفصل الخامس من هذا الكتاب " البديع عند القزويني"، وغابت فيه التعليقات، واكتفى بنقل الآراء البلاغة القديمة، وألحقها بنصوص المقامات التي تحتوي على البديع.

وعمل أحمد محمد علي على غربلة المقولات البديعية في كتابه: (دراسات في علم البديع)، كاشفا أنّ هدفه تقديم " **دراسة لمسائل هذا العلم، تقوم على غربلة المقولات السابقة فيها، ابتداء من ابن المعتز وانتهاء بمدرسة التلخيص؛ عسى أن نجلوها مما علاها من صدأ الجمود الذي أصابها، ونرتفع بها إلى المكانة التي تستحقها في البلاغة العربية**"[13]، **لكنّه** اكتفى بالنقل وتكرار المقولات البلاغية القديمة.

ولم تنجح دراسة الدكتور عبده زايد في تقديم نظرات جديدة لمعالجة قضية البديع، رغم ادّعه محاولة تحقيق ذلك في دراسته" نظرات في المحسنات البديعية". ولم تلامس دراسة عبد الفتاح لاشين (البديع في ضوء أساليب لقرآن) الفنون البديعية الجيّدة، ولم تتجنب الكثرة والإسراف في التقسيم التي انتقدتهما، وهو الذي كان يحاول العناية " **بألوان البديع في القرآن الكريم، وجهت همتنا إلى استخراجه من الكتاب العزيز، وبيان سر أصالته، وملاءمته للأسلوب، ومزيته في المعنى**"[14].

وادعت بعض الدراسات البلاغية تقديم التأصيل والتجديد في البديع، مثلما هو الحال في محاولة **مصطفى الجويني (البلاغة العربية: تأصيل وتجديد)**، وعالج ذلك في الجزء الخاص بـ (نقد جمالي جديد في دراسة البديع)، يتمثل النقد الجمالي الجديد في اقتراح موضوعات للدراسة في مجال البديع، وهي دراسة البديع دراسة تأريخية، ودراسة مصطلحات البديع لغويا واصطلاحيا، ودراسة البديع في مجالات الإبداع الأدبي والدرس النقدي[15].

والمؤلف في ذلك لم يقدم أي جديد في دراسته، بل إنّ محاولته في ربط البلاغة البديع وفن التشكيل بدت غائبة، وأنّ محاولاته في تقديم الجدة في دراسة هذا الفنّ لم تخرج عن إسناد الوظيفة التحسينية لهذا العلم، واتضح ذلك في دراسة أخرى قدمها بعنوان (**البديع: لغة الموسيقى والزخرف**).

ومن الأسس التي اعتمدت عليها دراسة المؤلف، عد شواهد البديع عند شاعر بعينه، إذ نجده يضع دراسة بعنوان **(البديع في شعر المتنبي: التشبيه والمجاز)**، وهو في ذلك يستعمل مفهوم البديع كما ظهر عند ابن المعتز.

وحاول بكري الشيخ أمين تجديد البديع، في كتاب وسمه بـ**(البلاغة العربية في ثوبها الجديد: علم البديع)، عمل من خلالها على دراسة الجماليات في النظم والمعنى من جهة، وفي الشكل والأسلوب من جهة أخرى.** وقصد من ذلك دراسة جماليات الشعر البديعي أو البديعيات، حيث بدأ حديثه في القسم الأول من الدراسة بالبديعيات، وتعريفها، وولادتها، وتأريخها، وأثرها في الأدب العربي والبلاغة[16].

ويقصد بالقسم الثاني، جماليات الشكل الهندسي في أشعار بعض الشعراء، وفهم الأسلوب على أنّه محسنات لفظية، حيث تناول في موضوعه السجع، والترصيع، والجناس.

وبكري الشيخ في محاولته، أراد أن يلبس البلاغة (البديع) ثوبا جديدا، غير أنّ القارئ لها، يقرّ بغياب التجديد عنده، وكلّ ما في الأمر، أنّه أعاد الدراسات البديعية إلى تلك المرحلة التي كان يتم فيها التلاعب بالزخرفة في الأشعار، ثمّ إنّ دعوته إلى الإفادة من علوم عصرية، من علم النفس وعلم الجمال، وعلم الأسلوب، لم تظهر ظلالها في الدراسة.

يذهب عبد المطلب إلى القول بأنّ متابعة الأشكال البديعية " **لا تعني رصد تحوّلاتها الزّمنية لتي ترتبُ به أحداث اللّغة، وإنّما تعني الإلحاح على ظواهر معيّنة، وهي ظواهر تولّد عنها نوع من التّراكم الكمّي لمجموعة من الظّواهر الّتي قد تميل بالخطاب الأدبي إلى جانب القبول، أو الرّفض** "[17].

وينقد محمد عبد المطلب الكيفية التي تمّ بها النظر إلى البحث البديعي، ويرى **"أنّ رجال البلاغة أهمّهم تحسّس بناء الجملة بوصفه الوحدة الصّغرى للخطاب اللّغويّ، واعتمدوا في ذلك على توصيف عناصر هذه الجملة توصيفا يبدأ من**

الحرف المعزول عن الدّلالة، ووصولا إلى التركيب بكل مكوناته الإفرادية، وبكل علاقاته النّحوية"[18].

وقسّم عبد المطلب المتابعة البلاغية في علم البديع إلى دائرتين، هما:

الدائرة الأولى: المعنى الذهني.

الدائرة الثانية: المستوى الصيّاغي.

ومعنى هذا أنّ التعامل مع الوسيلة التعبيرية في علم البديع ينبغي أن يمر عبر مرحلتين. تنطلق المرحلة الأولى مع الدائرة الثانية عن طريق العمل التحليلي، من منطقة السّطح الصيّاغي وكشف علاقتها التكوينية، وتحديد نظامها الشّكلي. وهو ما" **يُمكنُ الوصولُ إلى الدّائرة الأولى لكشف أبعادها عند المبدع، وتقديمها للمتلقّي في إطار يتوافق مع المقاصد الواعية لهذا المبدع** "[19].

يرى محمد عبد المطلب أنّ الإجراءات التطبيقيّة على كثير من النماذج الأدبية التي كانت بين أيدي البلاغيين قديما تكشف أنّ هذه النماذج في عمقها البنائي تعتمد على ثنائيّات تقابليّة، وأنّ تكاثرها بمستويات مختلفة ناتج عن عمليّة التحوّل المصاحبة لكلّ نمط[20].

والبديع في نظر عبد المطلب مجموع التّنويعات اللغويّة التي تتأتّى على مستوى السطح، منتجة دلالة خاصة، وهو مجموعة من المؤثرات الجديرة بالاهتمام، تتّصل بالمبدع أحيانا، وبالمتلقّي أحيانا أخرى، وتنحصر في النّصّ ذاته أحيانا ثالثة، وهذه المؤثرات لا تتحرّك في إطار واحد، بل إنّها تتبدّل وتتغيّر، وتتصادم لتخرج عن إطار المحفوظ اللّغوي لتشكّل في النهاية تنوّعا فرديّا، أو جماعيّا أسماه البلاغيون البديع[21].

ويذهب عبد المطلب إلى ضرورة تحقيق التلازم بين المستوى السطحي والمستوى العميق في دراسة البنى البديعية، **إذ يقول: "فلا معنى للتّوقف بالرّصد والتحليل عند المستوى السّطحي فحسب دون ربطه بالمستوى العميق "**[22].

والأساس في دراسة البديع يكون بدراسة النظام الدّاخلي لهذه البنى، وما يكون بينها من توافق أو تخالف.

ويخلص الباحث أنّ التدقيق والتّأمل في البديع؛ يوضح أنّ مجموعة الأشكال البديعيّة ترتبط بعلاقة عميقة تكاد تسيطر عليها وتوجّه عملية إنتاجها للمعنى، وهذه العلاقة في نظره تتمثل في البعد التّكراري الّذي تجلّى على مستوى السطح الصيّاغي، وعلى مستوى العمق الدّلالي، وأنّ التكرار هو ممثّل البنية العميقة، والمدخل الصحيح للتعامل مع علم البديع، دون نفي إمكانيّة البنى البديعيّة في تقديم إضافات دلالية إلى هذا التّكرار(23).

وتتبع دراسة البعد التكراري في علم البديع يسمح إما بإنتاج الدلالة، وإما إنتاج صوتي إيقاعي، أو من الاثنين معا، لتأخذ الفاعلية التكرارية في التوافق أو التخالف وجهتها الإنتاجية إمّا في جهة المعنى الذي يمثله الطباق، أو المقابلة، أو المشاكلة، أو المذهب الكلامي، وغيرها من الأقسام التي أطلق عليها بالمحسنات المعنوية، وإما من جهة اللفظ، من الجناس، أو السجع، أو رد العجز على الصدر أو غيرها من الأقسام التي أطلق عليها بالمحسنات اللفظية.

بنى محمد عبد المطلب منهجه في دراسة البديع على رصد البنى البديعية الرئسية، وتحديد النّظام الذي يحكم حركتها الداخلية، دون محاولة أن يفرض هذا النّظام من الخارج، أو بفكر مسبق، وإنّما ترك للبنى إفراز نظامها في السّطح أو العمق، وكشف فاعليتها في إنتاج المعنى. ومن ثمّ فقد قسّم البنى البديعية وفق ثنائية (التوافق/ التخالف) إلى أربعة أقسام، وهي(24):

القسم الأوّل: تخالف بين الدالّين في المستوى السطحي والمستوى العميق.

القسم الثاني: توافق بين الدّالين في المستوى السطحي والمستوى العميق.

القسم الثالث: توافق بين الدّالّين في المستوى السّطحي وتخالف في المستوى العميق.

القسم الرابع: تخالف بين الدّالين في المستوى السّطحيّ وتوافق في المستوى العميق.

وبناء على هذه الاحتمالات الأربع، راح محمد عبد المطلب يبحث عن الكيفية التي يتم بها إنتاج البنى البديعية، ووجد أنّ التخالف أو التوافق بين الدالين سواء على مستوى السطح أو العمق ينتج أشكالا بديعية.

و لم يخلق عبد المطلب اسما جديدا لهذه الأشكال البلاغية في علم البديع إنّما حافظ عليها مثلما جاءت في البلاغة القديمة، غير أنّ توزيعها أخذ أربعة أقسام وفق مبدأ التوافق والتخالف، على غير ما عهدناه في تقسيم الفنون البديعية إلى قسمين: محسنات لفظية، وأخرى معنوية.

ووصل عبد المطلب عن طريق الدراسة التي قام بها إلى أنّه:

عندما يكون تخالف بين الدّالين في المستوى السطحي والمستوى العميق، ينتج ذلك أشكالا بديعية هي: **الطباق، والمقابلة، والرّجوع.**

وعندما يكون توافق بين الطرفين في المستوى السطحي والمستوى العميق، ينتج ذلك أشكالا بديعية، هي: **تشابه الأطراف، والتّرديد، وردّ الأعجاز على الصّدور، والمجاورة.**

أمّا عندما يكون التوافق حاضرا في المستوى السطحي والتّخالف في المستوى العميق فإنّ التكرارية تنتج البنى البديعية التالية، وهي: **الجناس، والمشاكلة، والأسلوب الحكيم، والعكس والتّبديل، والتّعديد، وتنسيق الصفات.**

في حين تتيح التكرارية إنتاج عدد كثير من البنى البديعية، عندما يكون التخالف في المستوى السطحي، والتخالف في المستوى العميق، واكتفى محمد عبد المطلب بدراسة بنية **مراعاة النظير، والإرصاد، التّذييل، تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ، وتأكيد الذّمّ بما يشبه المدح، الالتفات.**

وبذلك يكون مفهوم البديع من منظور محمد عبد المطلب هو مجموع التنويعات اللغوية التي تتأتى على مستوى السطح، منتجة دلالة خاصة، وهو

مجموعة من المؤثرات الجديرة بالاهتمام، تتّصل بالمبدع أحيانا، وبالملتقيّ أحيانا أخرى، وتنحصر في النّص ذاته أحيانا ثالثة، وهذه المؤثرات لا تتحرك في إطار واحد، بل إنّها تتبدّل وتتغيّر، وتتصادم لتخرج عن إطار المحفوظ اللغويّ لتشكل في النهاية تنوّعا فرديّا أو جماعيا[25].

تجديد البديع والإسهام في التأصيل للسانيات النصية العربية:

يدور هذا الجزء من البحث حول الكيفية التي أسهم فيها موضوع تجديد علم البديع في التأسيس للسانيات العربية، وهو العمل الذي قام به جميل عبد المجيد في الدراسة الموسومة بـ **" البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية"**.

إنّ العمل الذي قدّمه جميل عبد المجيد انطلق من الدعوة المبكرة التي نادى بها أمين الخولي، عندما قال: **"إنّنا اليوم نمد البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبية، ثمّ إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر ننظر إليها نظرتنا إلى كل متماسك وهيكل متواصل الأجزاء، نقدر تناسقه وجمال أجزائه، وحسن ائتلافه، ونتحدث فيما لابد منه في هذه النظرات من شؤون فنية "**[(26)].

هذا الكلام فهمه جميل عبد المجيد على أنّه **" دعوة جدّ مهمة وجد قيمة، وتتصل اتصالا وثيقا بالآفاق الجديدة"**[(27)]، التي تقوم على إعادة قراءة التراث البديعي ومحاولة معرفة دوره في إنتاج النص وبنائه. بعدما وجد أنّ هناك من يقلل **"شأن البديع وذلك بجعله- وعلى حد تعبير غير باحث- ذيلا لعلمي المعاني والبيان ويحصر وظيفته في التحسين والتزيين، ففي هذا غفلة عن الوظيفة الفنية التي قد يسهم البديع في تحقيقها، وهي وظيفة من أخص خصائص الكلام الأدبي، ألا وهي وظيفة (الأدبية)، كما قد يسهم البديع في إكساب الكلام صفة النصية"**[(28)].

كما أنّ جميل عبد المجيد اقتنع بالنتيجة التي وصل إليها سعد مصلوح، بإثباته للعلاقة القائمة بين علم البديع وعلم النّص، وأنّ " في التراث البديعي من الثراء والخصوبة من هذه الوجهة ما يحفز الجادين من الباحثين إلى استفراغ وسعهم في إعادة تشكيل هذا العلم من منظور نصيّ"[(29)].

ويمكننا أنّ نتعامل مع التصوّر الذي اقترحه جميل عبد المجيد وفق الوظيفتين المسندتين للفنون البديعية:

أ- وظيفة « السبك » وتجلياتها في الفنون البديعية:

إنّ علاقة الفنون البديعية بالنصيّة هو محور التصوّر التجديدي عند جميل عبد المجيد، فهو يحاول أن ينتقل بدورها التحسيني إلى القيام بوظيفة سبك النص وحبكه، بدلا من تحسين اللفظ وتحسين المعنى المعهود في البلاغة القديمة. وقد مكنه الاطّلاع على المكتبة اللسانية من الإقرار بأنّ " **معالجة اللسانيات النصيّة لظواهر لغوية، جاء بعضها في إطار البديع اللفظي، وبعضها الآخر في إطار البديع المعنويّ** "[30].

وإذا كان محمد عبد المطلب قد أقرّ بأنّ التكرار هو المدخل الصحيح في التعامل مع البنى البديعية فإنّ الفكرة نفسها تلقفها جميل عبد المجيد الذي يرى قوّة العلاقة بين السبك والتكرار، الأمر الذي أدى به إلى بيان الفوارق بين معالجة البلاغيين والنصيّين لهذه الظاهرة، محاولا في ذلك خلق التقارب بين البلاغة العربية (علم البديع) واللسانيات النصيّة. وخلص إلى أنّ معالجة البلاغيين لظاهرة التكرار تمّ حصر دورها في أدبية الكلام وشعريته، في حين كشف علماء لغة النص أنّ التكرار يؤدي دورا في سبك النص، وهو من عوامل النصيّة عندهم[31].

ومن هذا المنطلق حاول جميل عبد المجيد تجديد علم البديع من خلال التفتح على لسانيات النص، والعمل على البحث عن الأفق الجديد للفنون البديعية في ضوء المعرفة اللسانية الجديدة، متسائلا عن الكيفية المثلى التي تقدمها المحسنات اللفظية في غاية سبك النص، خاصة وأنّه فطن إلى استحسان فكرة الترابط في التّراث اللغويّ العربيّ.

لقد بحث جميل عبد المجيد عن ظلال مقولات اللسانيات النصيّة في التراث البلاغي، وكأنّه كان يبحث عن أصالة هذا المنهج عند علماء العربية؛ إذ انطلق من رصد وظيفة التكرار عند البلاغيين، وقام بتحليل بعض الشواهد التي استعملوها، ولاحظ أنّها هناك "**تجوز التكرار مستوى الجملة والبيت وحدوثه أكثر من مرة،**

وإحالته في كل مرة إلى الطرف الآخر من طرف أو أطراف التكرار؛ مما جعله عاملا لغويّا من عوامل تجسيد الاستمرارية "[32]. ومن طرف خفيّ كأنّه يقول بأنّنا لم نحسن قراءة التراث بشكل جيّد؛ وأنّ شرعية هذا التراث تظهر في أهمية الفنون البديعية في خلق سبك النص وحبكه، وبالتالي الوصول إلى الانسجام النّصي.

من أجل تحقيق هذا المشروع، أعاد جميل عبد المجيد قراءة ما كتبه البلاغيون في علم البديع، مرة أخرى، ووجد أنّ الفنون البديعية التي تندرج تحت التكرار اللفظي تسهم في سبك النص، وأنّ بعض البلاغيين تنبهوا لهذه الوظيفة، لكنهم لم يفسروها بالشكل المطلوب، وهذه الفنون هي: الترديد، والتعطف وردّ الأعجاز على الصدور، وتشابه الأطراف، والاشتقاق[33]. وهذه الفنون تندرج في إطار **السبك المعجمي**.

وهناك بعض الفنون صنفها جميل عبد المجيد ضمن ما أسماه بـ **" التوهم اللحظي للسبك المعجمي"**؛ يعني أنّ السبك فيها لحظة واهمة، وهي: الجناس التام، والجناس المطرف، وشبه الاشتقاق، والمشاكلة الحقيقية. وهناك فنون سمّاها " المصاحبة المعجمية"، تؤدي وظيفة السبك المعجمي أيضا، وهي: الطباق، ومراعاة النظير، والتسهيم، والتوشيح[34].

وقد استثمر جميل عبد المجيد معطيات علم النص في التوازي الذي يقوم بالسبك النحوي، وأضاف هذه الوظيفة لبعض الفنون البديعية، وهي من أهم الوظائف المؤدية للنصيّة، وهي: المقابلة، والمزاوجة، والعكس والتبديل، والتفريق، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم. وأكد على أنّ هذه الفنون تخدم النص من حيث أنّ فيها تواز نحوي، وهي سابكة، وأنّ سبكها يتجاوز مستوى الجملة أو البيت. أما بخصوص الأشكال البديعية التي تؤدي التوازي الصوتي فهي: المقابلة، والتجزئة، والترصيع، والمماثلة، والتفويف، والتشطير، والتسميط[35].

والمصطلح البديعي في نظر جميل عبد المجيد يفيد من قريب أو بعيد عن تفطن البلاغيين العرب لدور الأشكال البديعية في إضفاء السبك على النّص، فمنها ما تفيد التكرار (السجع، والترديد، ولزوم ما لا يلزم)، ومنها ما تفيد الاتساق

والانسجام (التجانس والتوفيف)، وأخرى فيها معنى التكافؤ والتساوي، وهي: الترصيع، والتشطير، التجزئة، والتوازي، والموازنة)[36].

ب- وظيفة « الحبك » وتجلياتها في الفنون البديعية:

وإذا كان جوهر البحث في التماسك يعنى بدراسة العلاقات بين الجمل فإنّ جميل عبد المجيد قرأ التراث البديعي بصورة جديدة لعله يبحث عن الفنون البديعية التي تتمتع بهذه الخاصة من إقامة العلاقات المشكلة لتماسك النصّ. وقد لاحظ أنّ كثير من العلاقات الدلالية تتجلى في كثير من الفنون البديعية التي تندرج في إطار التكرار المعنوي[37].

تركز الإجراء عند جميل عبد المجيد في البحث عن وظيفة الفنون البديعية في الحبك، الذي يقصد به التلاحم والتماسك المعنويّ بين أجزاء النّص، والحبك له علاقة بجانب الربط المعنوي وهو العنصر الأهم في تشكيل المعنى.

ومن ثمّ فإنّ صاحب هذا التصوّر التجديدي في علم البديع صنّف الفنون البديعية بحسب نوع العلاقة الدلالية، ويمكن وضعها في الشكل الآتي[38]:

- علاقة الإضافة المتكافئة: تتجلى في التكرار المعنوي والجمع.
- علاقة الإضافة المختلفة: تتجلى في مقابلة الاستحقاق
- العلاقة الإبدالية: تتجلى في تجاهل العارف.
- علاقة التقابل: تتجلى في (المقابلة، والعكس والتبديل، والرجوع).
- علاقة الربط المنعكس: تتجلى في (القول بالموجب، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح).
- علاقة المقارنة: تتجلى في (التفريق، ومقابلة المقارنة، والتفريع، وجمع المؤتلفة والمختلفة).
- علاقة التعميم: وتتجلى في (التفسير، والتقسيم، واللّف والنشر).
- العلاقات المنطقية: وتتجلى في (المذهب الكلامي، والمزاوجة، والتعليل).
- علاقة التناسب: تتجلى في (تشابه الأطراف، والتفويف، والتسهيم)

– علاقة الاستطراد: وتتجلى في (الاستطراد، والتخلص، وفصل الخطاب، والتفريع، والإدماج، والاستتباع).

علّق جميل عبد المجيد على هذه الفنون، قائلا: "**وتغدو هذه الفنون بما فيها من علاقات دلالية، مؤهلة للإسهام في الحبك، كما تغدو بحكم تجاوز معظمها مستوى الجملة والبيت من جهة، وقابليتها للتحقق على مستوى الفقرة والنّص من جهة أخرى تغدو مؤهلة للإسهام في الحبك فيما بين الجمل والفقرات والنص بتمامه**"[39]

إنّ هذه الفنون البديعية التي ذكرها جميل عبد المجيد قد عمل على فحصها من الداخل، ولاحظ أنّه تؤدي وظيفة دلالية، وبالتالي فإنّ المحلل البلاغي عليه أن يستجلي هذه العلاقات داخل النص، وهي " **خاصية دلالية للخطاب، يعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى** "[(40)].

وبناء على ذلك، فإنّ جميل عبد المجيد يحاول أن يؤسس للسانيات النصية العربية بما يتوفر من آليات في التراث البديعي؛ وشرعية هذا التراث في خلق مؤهلات تسمح باستثمار المعطى المعرفي القديم مرة أخرى في قراءة النصوص الأدبية من الوجهة البلاغية (البديعية تحديدا).

إنّ التصوّر الذي قدّمه جميل عبد المجيد في سبيل تجديد علم البديع يهدي إلى أنّ الفنون البديعية يمكن أن تؤدي وظيفة دلالية جوهرية، أسمى من الوظيفة التي أسندها البلاغيون قديما لهذا العلم (التحسين)، وتكمن تلك الوظيفة في إضفاء خاصية دلالية للخطاب، من خلال أداء دور السبك والحبك للنّص، وهما من أهمّ المقوّمات التي يقوم عليها التماسك النّصي.

وبذلك يكون جميل عبد المجيد قد نجح في استثمار أفكار محمد عبد المطلب، الذي دعا إلى أن يكون التكرار هو المدخل الصحيح في التعامل مع التكوين البديعي، غير أنّ جميل عبد المجيد زاد عن ذلك عندما أقرّ بدور التكرار اللفظي في السبك، ودور التكرار المعنوي في حبك النص. ومن هنا فقد ألبس الفنون البديعية ثوبا جديدا على حدّ تعبير بكري الشيخ.

خلاصة المقال:

لقد أثبت المقال بأنّ الدرس البديعي عند العرب كان حقّا بحاجة إلى نفس جديد، من خلال إضافة بعض المفاهيم التي تسهم في إسناد وظيفة دلالية له، بدلا من وظيفة " التحسين" التي أتى بها البلاغيون في مصنفاتهم، واعتمد عليها التربويون في ممارستهم التعليمية لهذه المادة العلمية.

كما أنّه يمكننا القول إنّ الدارسين العرب المحدثين قد تفطنوا إلى قضية البديع مبكرا، وقدمّوا تصوراتهم بشأن تجديد هذا العلم إلا أنّ التطور الحاصل في اللسانيات الحديثة قد أفاد الباحثين المتأخرين في تقديم تصورات جدّ هامة، مكنت من تقديم قراءة واعية للتراث البديعي، على غرار ما رأينا في قراءة محمد عبد المطلب الذي يكون قد تأثر بأفكار تشومسكي في تقديم وصفته العلاجية لحلّ مشكلة البديع، وأيضا قراءة جميل عبد المجيد التي أبانت عن أهمية الفنون البديعية في إنتاج النصيّة، من خلال الدور الذي تقوم به عبر النص كلّه، بإضفاء عنصري السبك والحبك عليه، وهما من المقومات الأساسية التي تعتمد عليه نظرية النّص.

ومن ثمّ فإنّنا ندعو القائمين على العملية التربوية ضرورة الاستفادة من هذه المخرجات في سبيل تقديم الدرس البديعي بالشكل الذي يضمن له حقّه من العناية في مقاربة النصوص الأدبية ونقدها.

مراجع البحث وإحالاته:

1 السكاكي، أبو يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، تحقيق حمدي محمد قابيل، المكتبة التوفيقية، مصر، ص 365.

2 بدر الدين بن مالك: المصباح في المعاني والبيان والبديع، تحقيق حسنى عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، ص5.

3 الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، 1989،ج2،ص 477 .

4 حسنى عبد الجليل يوسف: علم البديع بين الإتباع والابتداع (دراسة نظرية تطبيقية في شعر الخنساء)، دار الوفاء،الاسكندرية، مصر،ط1،2007، ص 17 .
5 أحمد مطلوب: منهج السكاكي في البلاغة، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد10، 1962، ص 289.
6 شفيع السيد: البحث البلاغي عند العرب (تأصيل وتقيّم)، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 220.
7 المرجع نفسه، ص 221 .
8 نفسه، ص 223.
9 شفيع السيد: المرجع السابق، ص 224 .
10 المرجع نفسه،، ص 225 .
11 بسيوني عبد الفتاح فيود: علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع)، مؤسسة المختار للنشر والوزيع، ، القاهرة،ط2،2004، ص 5 .
12 فايز الداية: البلاغة العربية (البيان والبديع)،منشورات جامعة حلب، 1984، ص 75.
13 أحمد محمد علي: دراسات في علم البديع، مطبعة الأمانة، مصر، 1406هـ، ص 12.
14 عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999،ص3.
15 مصطفى الجويني: البلاغة العربية (تأصيل وتجديد)، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ص14.
16 بكري الشيخ أمين: البلاغة في ثوبها الجديد (علم البديع)، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1991، ص13.
17 محمد عبد المطلب: البلاغة العربية (قراءة أخرى)، الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان، ناشرون، بيروت، ط1، 1997، ص346.
18 المرجع نفسه، ص 349 .
19 نفسه، ص 349 .
20 محمد عبد المطلب: المرجع السابق، ص 350 .
21 المرجع نفسه: ص 351 .
22 نفسه، ص 351 .
23 نفسه، ص 353 .
24 محمد عبد المطلب: البلاغة العربية، ص 360 .
25 ينظر، محمد عبد المطلب: المرجع السابق، ص 351.
26 أمين الخولي: فنّ القول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947، ص 12.
27 جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2006، ص15 .

28 المرجع نفسه، ص 32.

29 سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات النصيّة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2003، ص 237.

30 جميل عبد المجيد: المرجع السابق، ص 75 .

31 المرجع نفسه، ص 86 .

32 جميل عبد المجيد: المرجع السابق، ص 88 .

33 المرجع نفسه، ص81 .

34 نفسه: ص 86 .

35 نفسه، ص 91.

36 نفسه، ص 120

37 جميل عبد المجيد: الرجع السابق 125 .

38 ينظر، المرجع نفسه، ابتداء من الصفحة 142 إلى 152.

39 نفسه، ص 184 .

40 صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر،ط1996،1، ص244.